مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ القَمَرِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة القمر

أ. د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة القمر

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾

افتتح الله تبارك وتعالى سورة القمر بشأن وموضوع يوم القيامة، فقال تعالى ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ قد اقترب موعد يوم القيامة، بدلالة انشقاق القمر، وقد ورد أنه حدث في عهد رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم. وابتدأ البيان بفعل الاقتراب ﴿ اقْتَرَبَتِ ﴾ الذي يفيد الدنو، بل من عظيم البيان أنه لم يقل تبارك وتعالى: قربت الساعة، بل ﴿ اقْتَرَبَتِ ﴾ بزيادة الألف والتاء، وفي زيادة المبنى دلالة على زيادة المعنى، بما يفيد اقتراب الساعة اقتراباً كبيراً. ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم (بُعثتُ أنا والساعة كهاتين) وقال بأصبعه الوسطى والسبابة[١] لبيان قُرب السبابة من الوسطى. أن قربهما مماثل لقرب الساعة. والساعة اسم من أسماء يوم القيامة. وبالتالي فإن من علاماتها بعثته صلى الله عليه وسلم.

ثم قال تبارك وتعالى تأكيداً على اقتراب الساعة ﴿ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ أي: انفلق وصار القمر قسمين، أي: فرقتين متباعدتين. ففي لحظة من اللحظات انفلق القمر إلى قسمين بأمر الله تعالى وقدرته. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُريهم آية، فأراهم انشقاق القمر[٢]

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٥٣٠١) ومسلم، صحيح مسلم، برقم (٢٩٥٠)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، (٥٣٨/٢) برقم (٣٦٣٧)

وأيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه: فأراهم القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما[١] أي: رأوا جبل حراء بين فرقتي القمر عندما انفلق. وهذا إنذار من الله تعالى بقرب يوم القيامة، بما يعني فناء الدنيا وانتهائها، وبما يفيد أن عليكم أيها الناس الاستعداد للانتقال إلى الآخرة، وما سيمر به هذا الانتقال من أهوال يوم القيامة، فانتبهوا واستيقظوا من غفلتكم، وما أنتم فيه ساهون ولاهون.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن تكذيب المشركين بمكة لِمَا رأوا من انشقاق القمر، ونعتوه بالسحر. فقال تعالى عن قولهم، وعن نهجهم مع الآيات جميعاً ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ وإن يرى المشركون دليلاً وبرهاناً على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، يُعرضوا عن التصديق والإيمان به، ويقولون لِمَا يرونه من الآيات الباهرات كانشقاق القمر ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ هذا سحر دائم مُطَّرِد في إتيانه وذهابه، أي: بما يدل على تتابع الآيات، التي ينعتونها بالسحر، وهذه شهادة منهم بتتابع الآيات، وتعددها، ولكنهم ينعتونها بالسحر. ولم يحصر سبحانه وتعالى تكذيبهم في انشقاق القمر فقط، بل أورد تكذيبهم بكل آية تأتيهم ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً ﴾ وإن يروا أي آية وحجة فإنهم يقابلونها بالإعراض ﴿يُعْرِضُواْ﴾ أي: يصدوا عنها. ثم يفسرونها ويؤولونها بأنها ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ وعن عبدالله رضي الله عنه قال: انشق القمر في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت قريش: هذا سحر. فاسألوا السُّفَّار، أي: المسافرين. فَسَألُوهم. فقالوا: نعم. قد رأيناه[٢] وبالرغم من أن غيرهم رآه ممن كان في سفر، وبعيد عن موقعهم، وبما يؤكد انتفاء السحر عنهم كما يزعمون، إلا أنهم كذبوا ما رأت أعينهم، وأنكروا ما أثبتته رؤيا السُّفَّار لانشقاق القمر، وهم في بُعْدٍ عنهم، حيث كانوا في سفر، فشهد عليه غيرهم ممن كان خارج مكة، ليثبت أنه حقيقة وليس بسحر، فكل أحد من الناس قدر رآه. مما يدل على أن الهوى إذا سيطر على النفس جعلها تجحد الحق، وتكابر وتستعلي.

ودلالة قولهم بأنه سحر ﴿مُّسْتَمِرٌّ ﴾ تجمع ثلاث دلالات: أحدها: ذاهب. من قولهم: مر الشيء واستمر: إذا ذهب. والثاني: شديد قوي. والثالث: دائم[٣] وجميعها تعني: أنه سحر قوي، وذاهب، ومنتهي شأنه، ودائم مُطَّرِد في إتيانه وذهابه، فلا نَهتَمُّ به. بما يعني الجحود التام لكل حجة وبرهان. مما يفيد أن المستكبر يحاول أن يُضفي على الحقائق التي لا يريد أن يعترف بها كل مُنكر من الأباطيل والتأويلات الفاسدة. وفي هذا ما يفيد الحذر من الكبرياء والحسد، فإنها تمنع الإنسان من كل خير. فإذا منعت هؤلاء المشركين من أهم شأن،

(١) البخاري، الجامع الصحيح، (٥٩/٣) برقم (٣٨٦٨)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠٦/٢٢-١٠٧)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٤٣/٧)

وهو أمر الله تعالى، وعقابه وعذابه، فكيف بأثر قوة الاستكبار مع صاحبه فيما هو دونه من أمور الحياة. فليحذر المرء من الكبر والحسد بكل ما أوتي من قوة وإرادة، ويسأل الله تعالى العافية منه، ومن كل شر.

ثم يخبر تبارك وتعالى أنه بالرغم من تلك البراهين والحجج التي من بينها انشقاق القمر إلا أن المشركين استمروا في عنادهم وكبريائهم. فقال تعالى ﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ فقد كذبوا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، واتبعوا ما أملته عليهم أهواءهم مما تشتهيه وتهواه أنفسهم من الاستعلاء والاستكبار. فقد بدأ البيان الكريم ببيان ردت فعلهم وجوابهم أمام ما عاينوا بأبصارهم وبصائرهم من الآيات العظيمة، فقال تعالى ﴿ وَكَذَّبُوا۟ ﴾ والكذب يعني القول بخلاف الحقيقة، بما يفيد تحقق معرفتهم للحق، بما عاينوا وشاهدوا وسمعوا من الحق، ومن ذلك انشقاق القمر. ومع ذلك جحدوا ما شاهدوا وعاينوه بأبصارهم. ثم علل سبحانه وتعالى سبب ذلك الكفر. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ فخالفوا ما يجب من اتباع الحق بسبب أنهم رجحوا اتباع ما تهواه أنفسهم من الباطل. والهوى هو: ميلان النفس وترجيحها لما تهواه وتستطيبه من الشهوات، بمخالفة الشرع، ومخالفة العدل، والعقل. بسبب رغبتهم في الاستمرار على ما اعتادوا عليه من أمور الشرك والباطل. مما يفيد ويبين أثر الهوى على النفس، إلى درجة أنه يمنعها من الحق، بسبب ما يمليه الهوى من التخيلات والاعتقادات والأفكار والتحليلات الباطلة، وترجيحها على الحق. مما ينبه الإنسان إلى الحذر من الهوى، وفتنته وشره.

ثم يقول تبارك وتعالى على سبيل التحذير والوعيد ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ وكل أمر من الخير أو الشر يستقر إلى غايته ومنتهاه، بما يعني أنه واقع بأهله يوم القيامة عند الحساب والجزاء والثواب. فجعلها تبارك وتعالى قاعدة عامة لكل أمر. بما يعني أنهم سيستقرون إلى نتيجة كفرهم من العذاب في جهنم يوم القيامة، كما يستقر المؤمن إلى ثوابه بالجنة يوم القيامة. وهي قاعدة عظيمة، مفادها أن لكل عمل ثمرة ونتيجة، سيجدها صاحبها. ومن ذلك مستقر التكذيب بالرسل إلى جهنم وبئس المصير. لإفادة التحذير لهم ولغيرهم من مواجهة ومقابلة الحق بالكفر والجحود والعناد.

ثم يخبر اللهُ تبارك وتعالى بانتفاء العذر لهم، بعد أن أبلغهم الله تعالى به من حال الأمم السابقة التي كذبت بالمرسلين. فقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ فلقد وردهم من أخبار من سبق من الأمم التي كذبت برسلهم، وكيف أن الله تعالى عاقبهم بالهلاك والدمار في الدنيا، وما توعدهم به من نار جهنم وبئس المصير في الآخرة. وهذه الأنباء كافية في زجرهم وردعهم عن اتباعهم لما تمليه أهواؤهم عليهم من التكذيب بالرسول صلى الله عليه وسلم. وبالتالي قامت عليهم الحجة من كل وجه، والتي منها أخبار من سبق من الأمم الهالكة. وقد سَمَّى الله تبارك وتعالى أخبار تلك الأمم بالأنباء، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَقَدْ

﴿جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ بما يفيد عظم شأنها، لأن النبأ يدل على عظمة ما حوى من الأخبار. كما وردت بصيغة الجمع ﴿ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ لإفادة كثرتها. كما أفادت دلالة ﴿مُزۡدَجَرٌ﴾ قوة الحجة الزاجرة التي تنهى العاقل عن فعل الشيء المنهي عنه. ومع كثرتها وقوة زجرها فإنها لم تؤثر فيهم. ومن دقائق البيان كذلك هو ورود حرف ﴿مِّنَ﴾ الذي يفيد التبعيض، أي: بعضاً من الأنباء العظيمة التي تُوجب عليهم الاقتداء والتأسي بمن كان قبلهم. مما يدل على كثرة الأمم الهالكة، وعلى كثرتها فإن ما ورد هو شيء منها وليس جميعها.

كما سبق هذا البيان حرف التحقيق والتأكيد، الذي تقدمه وتصدره القسم ﴿وَلَقَدۡ﴾ الذي أعطى تعظيم وتفخيم الأحداث مع قوة التحذير لهم. وقد أفادت دلالة ﴿مُزۡدَجَرٌ﴾ قوة الحجة الزاجرة التي تنهى العاقل عن فعل الشيء المنهي عنه. وذلك لِمَا تضمنته من قوة البيان من الحجج الظاهرة التي تحمل قوة النهي والخوف مع وجوب السرعة في الاستجابة. ففيه كمال ما يستوجب الاتعاظ به. وبما يبين ويفيد قوة البيان من الله تعالى لهم ولغيرهم. ومع ذلك لم يتبعوا الحق، واتبعوا أهواءهم.

ثم يخبر تبارك وتعالى عما جاءهم من الحق، وما تضمنه من البيان والحجج والآيات الباهرة، فيقول عَزَّ وجل ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي: أن القرآن العظيم حكمة قد بلغت الغاية في الإنذار والبيان، وإقامة الحجة، بما لا يدع للعاقل مجالاً ولا فسحة لتركه والعدول عنه وعن مواعظه. وأما دلالة الحكمة في قوله عَزَّ وجل ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ﴾ فإنها تعني: الكلام المصون من الباطل. وتعني الحكمة كذلك أنه: ما وافق الحق في جميع مجالاته، واجتنب الباطل وجميع مفرداته، فتقع الحكمة على العلم والمعرفة، وعلى الفعل الذي به يترك الباطل ويأخذ بالحق. فإن من قوة حكمة القرآن أنه يُلزم من سمع آياته الاتباع من غير تردد. ولكن حال بعض الناس هو من لا ينتفع بما يُنْذَر به ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ فلا يعتنون بالنذر ويغتنون بها عن الباطل. فعدم إيمانهم دليل على أنه لا تغني هؤلاء النذر، بما يبين قوة عنادهم.

ومن قوة بلاغة الآية الكريمة أنها تضمنت تنوع الدلالات المتضافرة والمتعاضدة. فقوله تعالى ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ﴾ تعني القرآن الكريم، وتعني أيضاً: أن هذا لذي جاءهم من أنباء الماضين من الأمم السابقة فيه الحكمة البالغة التي تجعلهم ينزجرون ويهربون عما هم فيه من الشرك. قال ابن جرير رحمه الله تعالى:

يعني بالحكمة البالغة: هذا القرآن[١] وتعني كما قال الشوكاني رحمه الله تعالى: حال كون ما فيه مزدجر حكمة بالغة[٢] وأن ما جاءهم عين الحكمة، وهو الذي في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ وأما قوله تعالى ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ فأفاد معنيين: أحدهما: أنه استفهام. بمعنى التوبيخ. فيكون المعنى، أي شيء تُغني النُّذُر لهؤلاء إن لم يمتثلوا ويؤمنوا؟ وجائز أن يكون نفياً، على معنى: فليست تُغني النُّذُر. وقال المفسرون: والمعنى: جاءهم القرآن، وهو حكمة تامة، قد بلغت الغاية، فما تُغني النذر إذا لم يؤمنوا[٣] مما يفيد أن القرآن العظيم كله حكمة، وأن تدبير الله تعالى فيما سبق من حال الأمم حكمة وعظة لمن أراد أن يتعظ. مما يبين عظمة تراكيب كلمات القرآن وألفاظه وسياقه، وسعة دلالاته المتعاضدة، والتي تستوفي المقصد من كل وجه، من غير حاجة إلى تكرار السياق ليستوفي مفردات دلالاته.

ثم يتوجّه الخطاب من الله تعالى إلى النبي صلى الله عليه وسلم لبيان منهج التعامل مع من صد عن سبيله جَلَّ جلاله، وجحد بآياته وحججه وبراهينه، وكذب بها واستكبر. فقال تعالى ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ فأعرض أيها الرسول عن هؤلاء الذين جحدوا بآيات ربك، واستكبروا، واتبعوا أهواءهم، فكفروا بما جاءهم من الحق. ثم يبين تبارك وتعالى ما يفيد التهديد والوعيد لهم، وبما يفيد أنك قد أديت ما يجب عليك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم تجاه هؤلاء المعاندين في إعراضهم، ولم يبق لهم إلا العقاب. وبما يفيد وانتظر ماذا سيحل بهم ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ فسيحل بهم يوم يدعو داعي الله تعالى لهم إلى يوم القيامة. قيل: هو إسرافيل عليه السلام[٤] فيدعوهم إلى ﴿ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ أي: شيء عظيم، قد اشتد هوله، فتنكره النفوس، لأنه لا شيء أشد على الناس من يوم القيامة، فلم يشاهدوا له من قبل مثيلاً أبداً، ولا قريباً منه، لما فيه من الأهوال ذلك اليوم. فحينها سيدركون ما دعوتهم إليه، وكذبوك واتبعوا أهواءهم.

وقد عَظَّم اللهُ تعالى هذا اليوم بكل لفظة اشتمل عليها البيان، فكلمة ﴿ فَتَوَلَّ ﴾ أفادت الانصراف الذي يحمل معاني التهديد. وأفادت دلالة ﴿ عَنْهُمْ ﴾ التحديد والتعيين لهم، بما يفيد اترك هؤلاء بالتولي

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١٦/٢٢)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (١٢١/٥)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٤٣/٧)

(٤) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٨٥/١٧)

عنهم. ثم وردت كلمة ﴿يَوْمَ﴾ والتي حملت دلالة الإبهام له، بما يفيد التهويل والتعظيم لذلك اليوم. ثم وردت جملة ﴿يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ ولم يُعَيَّن هذا الداعي، ليزداد التهويل تهويلاً وشدة، مع شدة الوعيد. ثم ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ﴾ ليفيد تعظيم وتهويل مقصوده ومعناه بإبهامه وعدم تسميته. ثم وصف هذا الشيء بأفظع الأوصاف، فقال تعالى ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ فهو ﴿نُّكُرٍ﴾ أي: أن النفوس تنكره، لأنهم لم يروا مثل ذلك اليوم من فظاعته وشدته، والذي هو يوم القيامة الذي حذر الله تعالى في مطلع هذه السورة من اقترابه، فقال عَزَّ وجل ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ فهو أسلوب في غاية البلاغة البيانية، ليتبين الإعجاز البلاغي مع الإعجاز في تصوير التحذير وقوته.

ثم وصف تبارك وتعالى ذلك اليوم، فقال عَزَّ وجل ﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ فإن أبصارهم في ذلك اليوم الذي هو يوم القيامة تكون منكسرة، وذليلة، إذ يخرجون من القبور كأن حالهم في هيئتهم مماثلين لانتشار الجراد على الأرض. فإن أصوات الخلائق تكون في ذلك اليوم متصفة بالخشوع ﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ﴾ فجميع الأبصار متصفة بصفة الخشوع، الذي قد جمع معناه الذل، والخضوع، والخنوع، ووقوع الهيبة لمقام الرحمن تبارك وتعالى، الذي أظهر لهم فيه هول الموقف، ومجرياته التي يسيرون وفق مقتضياته، والتي يُؤمَرُ بها العباد وفق مُرَادِ الرحمن الرحيم.

وأظهر النص البياني الكريم أن وقوع الخشوع متعلق بالبصر، فهو الذي يخشع، كما تخشع الأصوات بناء على ما ورد في سورة طه. إذ قال تعالى ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ﴾ وفي هذا بيان لقوة خشوع أصحاب الأصوات والأبصار في ذلك الموقف، حتى اتصفت أصواتهم وأبصارهم بالخشوع من الذل والخوف، وهو تصوير بلاغي عظيم لحال الموقف، لأن البصر والصوت هما الحاستان المعبرتان عما يصيب الإنسان من الخوف والذل الذي تتجلجل وترتعد به القلب. مما يدل على رهبة الموقف الذي أظهر الله تعالى فيه مقامه الكريم، وقوته، وقوة سلطانه وقهره، وضعف هذا المخلوق. فإن كل هذا الخشوع هو لله تعالى العزيز الجبار، الرحمن الرحيم، ترقباً لما سيكون من أمره وتدبيره عَزَّ وجل.

ثم ذكر تبارك وتعالى حال خروجهم من القبور، فقال عَزَّ وجل ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: من القبور، وتكون هيئة الناس عند خروجهم، وانتشارهم ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ فمن شدة هلعهم كأنهم الجراد في هيئة تموجه وانتشاره، وكثرته، واكتظاظه، فهم مسرعون في خطاهم، ونظيره قوله تعالى في سورة القارعة

﴿ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤ ﴾ قال القرطبي رحمه الله تعالى: فيهما صفتان في وقتين مختلفين: أحدهما: عند الخروج من القبور، يخرجون فزعين، لا يهتدون إلى أين يتجهون. فيدخل بعضهم في بعض، فهم حينئذ كالفراش المبثوث، بعضه في بعض، لا جهة له يقصدها. والثاني: فإذا سمعوا المنادي قصدوه، فصاروا كالجراد المنتشر، لأن الجراد له جهة يقصدها[١] وفي هذا تصوير لحقيقة يوم القيامة وكأن الإنسان ينظر إليه ويعيشه، وذلك من دقة الوصف له. وبما يفيد الإنذار من ذلك اليوم، والموعظة به لمن أراد أن يتعظ بمواعظ الله تعالى.

ثم يزداد الوصف لحالهم يوم القيامة من الخنوع والخشوع والذل والهلع. فيقول تبارك وتعالى ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ فهم في سرعة وإقبال، مع قوة من الاستجابة للداعي الذي يدعوهم للحضور إلى الموقف العظيم، الذي يفصل فيه تبارك وتعالى بين الخلائق. فينال كل أحد ما يستحقه، فيدرك الكفار حينها ما يستحقون من العذاب، وما سيؤول إليه أمرهم من دخول النار. وتفيد دلالة ﴿مُّهۡطِعِينَ ﴾ الإسراع، فإنهم مسرعين ومشدودي النظر، مع المداومة على ذلك، من غير أن يطرف أحدهم بعينه، قال الزمخشري رحمه الله تعالى: وقيل: الإهطاع أن تُقبل ببصرك على المرئي، تديم النظر إليه، لا تطرف[٢] وهي صورة الخائف، الذي امتلأت نظراته بالذل والهوان مع الخوف الشديد.

وحينها يتكلم الكفار بالحسرة والندامة على ما كان منهم، حيث لا نفع لهم من ذلك التحسر والتندم ﴿يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ﴾ فيصف الكفار هذا اليوم بأنه عليهم ﴿يَوۡمٌ عَسِرٞ ﴾ فإن هذا اليوم الذي هو يوم القيامة شديد عليهم. فهو يوم عسير، قد خلا من كل يسر عليهم. بما يفيد أنه على المؤمنين يوم يسير. وبما يفيد أن هذا الإنذار هو لكل كافر بما أظهره الله تعالى وبينه عن حالهم وما يؤولون إليه يوم القيامة. وهذا من رحمة الله تعالى أن يبين للناس ما هم مقبلين عليه، ليرتدع من أراد الخير لنفسه. ولتقوم الحجة على الناس جميعاً، بما يبين ويشهد بأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد، وأنه رحمن رحيم.

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ۝١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ۝١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٥

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٨٥/١٧)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٥٥١/٢)

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

وبعد أن وعظ الله تعالى عباد بأهوال وأحوال يوم القيامة، وما هو شأن الكافرين فيها، ينتقل البيان الكريم إلى الوعظ بمن سبق من أحوال الأمم التي كذبت بِرُسُل الله عليهم الصلاة والسلام، فيقول الله تبارك وتعالى ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ ليس هؤلاء المشركين هم أول من كذب برسولهم محمد صلى الله عليه وسلم، فقد كان من قبلهم تكذيب قوم نوح برسولهم نوح عليه الصلاة والسلام. فقد كذبوه بما جاءهم به من الحق. بما يفيد لا تحزن أيها الرسول، فإن قبلك العديد من الرسل، وأولهم نوح. كما فيه موعظة للمشركين بأن يتعظوا بما يقصه ربهم عليهم من شأن الأمم السابقة التي أولها قوم نوح عليه الصلاة والسلام.

فقد كذبوا عبدنا ورسولنا نوح عليه السلام ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ فنسبوه إلى الجنون، بأن في عقله خلل. بما يفيد أنهم فسَّرُوا وأولوا كلام الحق منه لهم بأنه نتيجة اختلال في عقله عليه الصلاة والسلام.

وأن مضمون رسالته عليه السلام لا تتفق مع أهواءه، فأولوا الحق الواضح المبين إلى باطل لا يقوله عاقل. في حين أن ما جاءهم به عليه الصلاة والسلام من تشريع وهداية لا يشك عاقل في أنه حق واضح مبين، خاصة وأن معه ما يُثبت نبوته ورسالته من الله تعالى إليهم. مما يفيد أن أهل الباطل إذا أرادوا الصمود على باطلهم، رموا من يدلهم على طريق الحق بالجنون، وهو قول متكرر مع جميع المرسلين عليهم الصلاة والسلام.

وبناء على هذا التكذيب لرسولهم، وما وصفوه به من الجنون أغلظوا عليه وزجروه ﴿وَازْدُجِرَ ﴾ حتى يُقنعوا بقية الناس بما هم عليه من الضلال. فتهجموا عليه بالزجر، حيث قال تعالى عنهم ﴿وَازْدُجِرَ ﴾ أي: انتهروه وأغلظوا عليه في النهي عن دعوته لهم. ويحمل الزجر معاني التهديد، والتخويف والمنع، والتهجم بما لا يليق. بل ورد النص بصيغة الافتعال ﴿وَازْدُجِرَ ﴾ لإفادة قوة المبالغة مما كان منهم من الزجر ودلالاته من الشدة والغلظة.

وفي ختام المدة الزمنية التي قضاها نوح عليه الصلاة والسلام مع قومه، وهي ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهو يدعوهم إلى دين الله تعالى، فإنه في ختامها قد توجه إلى ربه تبارك وتعالى بالدعاء أن ينصره على قومه، كما قال تعالى عن نوح عليه الصلاة والسلام ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ فسأل نوح عليه

الصلاة والسلام ربه متوسلاً إليه ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ أي: لقد تمردوا عليَّ وغلبوني بقوتهم وكثرته، لأنه ما آمن معه إلا قليل. فلا قدرة له على مقاومتهم والانتصار عليهم ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ فانتصر لي منهم يا رب، بأن تأخذ حقي ممن كذبني، وتمرد على دين الله تعالى ورسوله. مما يكشف ويوضح بهذا البيان ما يُسلي به رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم مما كان يواجه من عناد قومه له عليه الصلاة والسلام. فعليك بالصبر واستمر في دعوتك، فقد واجه رسولنا نوح مثل ذلك. مما يفيد أهمية إعانة المكروب بما يدفع عنه ما هو فيه من الشدة.

ثم يخبر الله تعالى بما يعظ به مشركي مكة وغيرهم، مما حصل لقوم نوح عندما كذبوا به، فتضرع نوح عليه السلام بربه سبحانه وتعالى. فقال عز وجل ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ فأجبنا دعاء رسولنا نوح واستغاثته بنا عليه السلام. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده، إلا من السحاب. بينما فُتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم[1] وقد ورد البيان بما يفيد تعظيم ذلك الحدث، بقوله عَزَّ وجل ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فقد فتحنا نحن أبواب السماء. فنسب سبحانه وتعالى فتح أبواب السماء له عَزَّ وجل، لإظهار التعظيم، والتحذير من قوته وقدرته جَلَّ جلاله. وبما يبين أن للسماء أبواباً عظيمة. وأفادت دلالة الفتح على عظمة وكثرة ما ينزل من السماء، وكون الفتح متعلق بأبواب السماء لينزل منه الماء، ما يفيد أن الله تعالى عظيم في قدرته. كما وورد البيان عن قوة نزول الماء بأنه ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ الذي يعني تعظيم كثرته، وتعظيم نزوله وقوة أثره. فهو الكثير والسريع في نزوله على الأرض. قال المفسرون: جاءهم الماء من فوقهم أربعين يوماً، وفُجِّرَت الأرض من تحتهم عيوناً أربعين يوماً[2] مما يبين عظيم قدرة الله تعالى التي يعظ بها المعاندين من مشركي مكة، وغيرهم من الكفرة إلى يوم الدين.

ثم يصف الله تبارك وتعالى ذلك العذاب والهلاك لهم، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ فإن من قوة إرادة الله تعالى أن جعل الأرض تتفجر بالماء ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ بما يعني أخذت الأرض تُخرج الماء بكثرة وبقوة شديدة، فأصبحت الأرض عيوناً من كثرة تدفق المياه من باطنها، ثم يخبر سبحانه وتعالى عن عظيم تدبيره لإهلاكهم، فقال تعالى ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٨٢/٤-٢٨٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٤٥/٧)

أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ فاجتمع الماء النازل من السماء مع الماء المتفجر من الأرض. بما يفيد أنهم لم يتمكنوا من الحركة والانتقال، فيشاهدون الهلاك لهم أمامهم، وهو ماء يستوعبهم ليغشاهم من كل جهة.

ومن دقة البيان ومقصده الدلالي أن أفرد سبحانه وتعالى اسم الماء ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ ﴾ أي: فالتقى المصدرين للماء من السماء والأرض، لأن الالتقاء يكون بين اثنين وأكثر. فتشكل وأصبح هذا الماء ماء واحداً، ليبين اجتماعهما مع بعضهما البعض، فتكونا ماء واحداً من قوته وكثرته. ثم أخبر جَلَّ جلاله عن كمال قدرته، فقال عَزَّ وجل عن الماء وعن التقاء المصدرين للماء، بأنه كان ﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ إنه بتقديرنا وتصريفنا له كما أمرنا. ليفيد بيان عظمة الله تعالى، وعظمة قدرته التي تستوجب الاتعاظ بما يخبركم به أيها المعاندون.

ومن بلاغة البيان الكريم ما نقله ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن دلالة قوله تعالى ﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أنه ورد فيه دلالتان: أحدهما: كان قَدْر ماء السماء كَقَدْر ماء الأرض. والثاني: قد قُدِّر في اللوح المحفوظ[١] مما يبين عظمة البيان في استيعابه للمعنين: فإن الله تعالى بحكمته وقدرته جعل الماء الذي التقي من السماء مع الماء الذي من الأرض بقدر وميزان واحد، وكذلك يبين عظيم علم الله تعالى بما سيكون قبل أن يكون، فكتبه عَزَّ وجل في اللوح المحفوظ. فقد علم الله تعالى ذلك قبل حصوله وحدوثه. فاعتبروا أيها الناس بكلام الله تعالى، وبمواعظه وعظيم قدرته عَزَّ وجل.

ثم يخبر الله تعالى عن كيف كان تدبيره لنجاة نوح ومن معه من المؤمنين، فقال تعالى ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ وحملنا رسولنا نوح على سفينة ذات ألواح من خشب ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ أي: مسامير تشد الألواح بعضها في بعض. والدُّسُر هو إدخال ودفع الشيء في شيء آخر بقوة وشدة، ومن ذلك قولنا: دسر المسمار أدخله بقوة وشدة. مما يبين قوة السفينة، التي صنعها نوح عليه السلام بتوجيه من الله سبحانه وتعالى له. كما ورد ذلك في سورة هود. ومن قوة وشدة صناعتها أن الله تعالى جعلها تقاوم ذلك الماء الجارف العظيم، لتنجوا السفينة وينجوا من عليها.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن جريان تلك السفينة بأمره وتدبيره عَزَّ وجل، فقال جَلَّ جلاله ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ فجعلنا السفينة تجري بنوح عليه السلام ومن معه في ذلك الماء على عناية ومرأى مِنَّا، ليتبين حفظ الله تعالى لمن حفظ دينه، وأن الله عَزَّ وجل هو المنجي من كل كرب ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/٢٤٥)

﴿ كُفِرَ ﴾ جزاء لمن كفر بالله تعالى. وبمعنى أيضاً جزاء لكل منهم بما يستحق، فتشمل دلالتها: جزاء لهم على كفرهم بالله تعالى، وانتصاراً لنوح عليه السلام[١] وقال الفراء رحمه الله تعالى: فعلنا به وبهم ما فعلنا من إنجائه، وإغراقهم ثواباً لمن كُفِرَ به[٢] فاستوعبت دلالة قوله تعالى ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ كمال المعنى من كل وجه، وهذا من الإعجاز البياني والبلاغي لكتاب الله تعالى في استيفاء معانيه للأوجه المراد بيانها. فسبحان من أعجز بتراكيب كلامه جميع خلقه. وبما يؤكد أن هذا القرآن هو كلام الله تعالى يقيناً تاماً وكاملاً.

ثم يخبر الله تعالى بما جعل من الوعظ بهذا الحدث العظيم، وما يُذَكِّر به العباد عن عظيم قدرته عَزَّ وجل، وقوة عذابه لمن كذب بالمرسلين، وخاتمتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ولقد تركنا وأبقينا قصة نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام مع قومه عبرة وموعظة يتذكر ويتعظ بها المتذكرون الذين يعتبرون ويتعظون بغيرهم.

ومن عظيم معطيات الآية الكريمة أن تم افتتاحها بحرف التحقيق والتأكيد، الذي تقدمه وتصدره لام القسم ﴿ وَلَقَد ﴾ لإفادة قوة ما أبقاه الله تعالى من كمال ما تضمنه البيان من الموعظة والعبرة. وقد أفادت دلالة ﴿ ءَايَةً ﴾ أنه بيان وإيضاح وعلامة ظاهرة لكمال قدرة الله تعالى، وعظيم تدبيره، وقوة سلطانه على خلقه. ثم أورد ما يجب أن يستلهمه العباد من العبرة والاتعاظ بأسلوب السؤال الذي يحمل الحث والتحضيض على الاعتبار ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ فهلا اعتبرتم واتعظتم بما بيناه لكم؟ فهل هناك من يتذكر فيتعظ؟ وقد أفادت دلالة ﴿ مُّدَّكِرٍ ﴾ معنى: المتذكر الذي يتذكر ما يتعظ ويُوعظ به، فيستجيب للرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يتوجه الخطاب للمشركين المصرين على كفرهم، فيقول تبارك وتعالى ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ فانظروا يا من كفرتم برسولنا محمد صلى الله عليه وسلم كيف كان عذابي وعقابي للكافرين المعاندين لرسولنا نوح عليه الصلاة والسلام، وما حل بهم من العذاب الشديد. ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى ﴾ فكيف

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٨٣/٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٤٦/٧)

كانت قوة العذاب، وشدته. وكذلك كيف كان إنذارنا لهم، فتأملوا ما سبق ذلك من الإنذار الذي لم يستجيبوا له، فحق عليهم العذب بما أخبرناكم به. والنذر ﴿ وَنُذُرِ ﴾ هي جمع نذير، فتعني: الإنذار.

وقد أورد الله تعالى توجيه للمشركين بصيغة الاستفهام الذي يحمل صيغة خطاب التعظيم لذلك العذاب، والتحذير والتهويل من شدة العذاب الذي حاق بقوم نوح عليه الصلاة والسلام. فتأملوا وتدبروا كيف كان عذابي لهم، وما سبقه من إنذار. فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم من العذاب. مما يبين أن ما عَرَضَهُ الله تعالى في القرآن الكريم من قصص الأقوام المكذبة بالرسل هو للوعظ والاعتبار، بما يؤكد قيام الحجة على الناس، وبيان أن مراد الله تعالى هو نجاة الناس من عذابه إلا من أبى وأصر على كفره وتمرده واستكباره، ومطاوعته لهواه.

ثم ينتقل التوجيه الكريم إلى بيان أن مِن كريم إفضاله سبحانه وتعالى أنه يَسَّرَ القرآن الكريم الذي من مقاصده التذكير لمن أراد أن يتعظ ويتذكر به. فقال تعالى ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ ولقد يسرنا وسهلنا أسلوب وألفاظ ومعاني ودلالات القرآن العظيم ﴿ لِلذِّكۡرِ ﴾ لمن أراد أن يقرأه، ويعتبر به، ويحفظه، ويتعظ ويعظ به، ويحتكم إليه، ويتخذه شريعة له ﴿ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ فهل من ذاكر يتذكر به، فيقرأه ويتعظ به، ويتمسك به؟ وهو سؤال تحضيض وحث على العناية به، فهماً وحفظاً وتطبيقاً، واتعاظاً. وأن ما فيه من الوعظ والإنذار كاف لمن أراد أن يتعظ ويتذكر به الحق، والهدى، وسلوك الطريق المستقيم. وقد بدأ البيان بلام القسم المتصدر لحرف التحقيق والتأكيد ﴿ وَلَقَدۡ ﴾ بأن سهلنا القرآن العظيم. بما يفيد أنه لا صعوبة في فهمه والاتعاظ به أبداً.

ثم انتقل الوعظ للْمُخَاطَبين بما كان من قوم عاد ﴿ كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ كذبت عاد رسولهم هود عليه الصلاة والسلام، وهي القبيلة التي باليمن، التي ينتهي نسبهم إلى جدهم عاد، وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله تعالى إليهم رسوله هود عليه الصلاة والسلام. وقد ورد تفصيلاً لها في سورة الأعراف. وهود، والشعراء، والأحقاف. وقد أفردها البيان هنا بالذكر من غير عطف على قصة قوم نوح عليه السلام، لإظهار عظمة ما جاءهم من العذاب، نتيجة تكذيبهم لرسولهم هود عليه السلام. كما أنه لم يُذكر في الآية الكريمة هنا ذكراً لمن كذبوه ﴿ كَذَّبَتۡ عَادٞ ﴾ لشهرة العلم به، بأنه رسولهم هود عليه الصلاة والسلام، ولتشنيع قوة تكذيبهم، بقصر البيان على التكذيب منهم. ولإفادة تعظيم شأنهم في الكذب، حتى أصبح صفة عامة في أخلاقهم وتعاملهم، فقد ترسخ البهتان في سلوكهم.

ثم أورد تبارك وتعالى وجوب أخذ العبرة مما أصابهم من العذاب لقاء تكذيبهم وإسرارهم على كفرهم. وقد أورده جَلَّ جلاله بصيغة الاستفهام، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ فانظروا يا من كفرتم برسولنا محمد صلى الله عليه وسلم كيف كان عذابي وعقابي للكافرين المعاندين لرسولنا هود عليه الصلاة والسلام، وما حل بهم من العذاب الشديد. ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ فكيف كانت قوة عذابي لهم، وشدته. وكذلك كيف كان إنذارنا لهم ﴿ وَنُذُرِ ﴾ فتأملوا ما سبق ذلك من الإنذار الذي لم يستجيبوا له، فحق عليهم العذب بما أخبرناكم به. والنذر جمع نذير، أي: الإنذار.

وقد أورد الله تعالى توجيهه للمشركين بصيغة الاستفهام الذي يحمل صيغة خطاب التعظيم لذلك العذاب، والتحذير والتهويل من شدة العذاب الذي حاق بقوم عاد. فتأملوا وتدبروا كيف كان عذابي لهم، وما سبقه من إنذار. كما أن في إيراده بصيغة الاستفهام ما يفيد الحث على التأمل والتدبر فيما كان منهم، وما حاق بهم من العذاب المهين. وهذا الإنذار هو بعد الإنذار مما أصاب قوم نوح عليه السلام ما يبين رحمة الله تعالى بالناس، إذ يتلو عليهم متابعة الوعظ بمن سبق من الأمم التي كفرت بالمرسلين، وما حاق بهم من العذاب، من أجل أن يتعظ غيرهم بهم، ويفيئوا إلى رشدهم. فإن استكبروا فقد استحقوا العذاب بما كان منهم من الكفر. مما يبين عدل الله تعالى ورحمته، وأنه ليس بظلام للعباد.

ثم يخبر جَلَّ جلاله بما أصابهم من العذاب الشديد، فقال تعالى ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ إنا عاقبناهم على كفرهم بأن أرسلنا عليهم ﴿ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ أي: ريحاً شديدة في قوتها وسرعتها، فأصبح لصوتها صرير من قوتها وشدتها، فكانت ذات صيحة من قوتها التي أهلكهم الله تعالى بها. ثم وصف تبارك وتعالى ذلك اليوم بأنه كان يوماً سيئاً عليهم. فقال تعالى ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ أي: في يوم شديد الهول عليهم، من شدة ما أصابهم من البلاء. وورد نعته في هذه السورة بيوم ولكن أعقبه بما يدل على استمراره لأكثر من يوم ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ فكان مستمراً عليهم. فقد أوضح هذا الأسلوب شدة العذاب من أول يوم حل بهم. بينما في سورة فصلت قال تعالى ﴿ فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ أي: أيام سيئات، مشؤومات بشدة البلاء من العذاب، وتتابعها عليهم لأيام وليالي حتى أهلكهم الله تعالى بها. وأن الغاية من هذا العذاب الشديد من أجل أن يتذوقوا عذاب الخزي الذي هو عذاب الذل والهوان والانكسار في الحياة الدنيا، وأما عذاب الآخرة فهو أعظم عذاباً وهواناً وخزياً وذلاً مما حصل لهم في الحياة الدنيا.

ويتدرج البيان الكريم إلى وصف ذلك العذاب في ذلك اليوم الذي كان يوماً نحساً عليهم، فقال تعالى ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ تقتلع الناس من مواضعهم على الأرض، فتأخذهم من تحت أقدامهم، ثم ترمي بهم على رؤوسهم، فتصرعهم على رقابهم، فتنفصل رؤوسهم عن أجسادهم من قوتها. فقد بينت دلالة ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ ﴾ قوة وشدة أخذها لهم. لأن النزع يدل على الأخذ بعنف وقوة مع الغلظة والشدة في الأخذ، بحيث ينفصل عما كان متعلقاً به، أو مُستنداً إليه. مما يبين عظيم قدرة الله تعالى، وشدة نكاله بقوم عاد.

ثم يخبر الله تعالى عن حالهم بعد هذا النزع، إذ شبههم بالنخل الذي تم قلعه من أصله، فقال تعالى ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ فأصبحوا كالنخل الذي تم اجتثاثه من أصله من الأرض. وأفادت دلالة ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ شدة الأخذ، فمعنى ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ جمع عجز، وهو المؤخرة من الشيء وأسفله، وأعجاز النخل هي أصولها التي تقوم عليها ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ منقلع من قعر الحفرة التي كانت فيها النخلة، فأصبحت ممددة على الأرض. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: أنهم كانوا يتساقطون على الأرض أمواتاً، وهم جثث طوال عظام، كأنهم أعجاز نخل، وهي أصولها بلا فروع. ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ منقلع عن مغارسه[1] فتقطعت وانفصلت رؤوسهم عن أجسادهم كما تنفصل فروع النخلة عن جذعها التي كانت قائمة عليه. بما يفيد تفظيع شدة عذابهم. فاتعظوا أيها المشركون بما نعظكم به من تنوع عذابنا لمن استكبر فكفر. وفي هذا البيان من الله تعالى ما يوضح قوة قدرة الله تعالى مع تنوعها بما لا يخطر على بال أحد.

ثم أورد تبارك وتعالى وجوب أخذ العبرة مما أصابهم من العذاب لقاء تكذيبهم وإصرارهم على كفرهم. وقد كرر سبحانه وتعالى الآية التي وردت في مطلع البيان عن قوم عاد، وكذلك في تمام إهلاك قوم نوح عليه السلام ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ لإفادة التأكيد الجازم، والنصيحة القوية الربانية بأخذ العبرة من قوم عاد، المؤكدة لما قبلها بوجوب أخذ العبرة والعظة كذلك من قوم نوح. وقد أوردها جَلَّ جلاله بصيغة الاستفهام، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ فانظروا وتأملوا يا من كفرتم برسولنا محمد صلى الله عليه وسلم كيف كان عذابي وعقابي للكافرين المعاندين لرسولنا هود عليه الصلاة والسلام، وما حل بهم من العذاب الشديد. ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ فكيف كانت قوة عذابي لهم، وشدته. وكذلك كيف كان إنذارنا لهم ﴿ وَنُذُرِ ﴾ فتأملوا ما سبق ذلك من الإنذار الذي لم يستجيبوا له، فحق عليهم العذب بما أخبرناكم به. والنذر جمع نذير، أي: الإنذار.

---

(1) الزمخشري، الكشاف (٤/٤٣٦)

ثم ينتقل التوجيه الكريم للمرة الثانية إلى بيان أن من كريم إفضاله سبحانه وتعالى أنه يَسَّر القرآن الكريم الذي من مقاصده التذكير لمن أراد أن يتعظ ويتذكر. فقال تعالى ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ ولقد يسرنا وسهلنا أسلوب وألفاظ ومعاني ودلالات القرآن العظيم ﴿ **لِلذِّكْرِ** ﴾ لمن أراد أن يتذكر به ما ينفعه، فيقرأه، ويعتبر به، ويحفظه، ويتعظ ويعظ به، ويحتكم إليه، ويتخذه شريعة له ﴿ **فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ فهل من ذاكر يتذكر به، فيقرأه ويتعظ به، ويتمسك به. وهو سؤال تحضيض وحث على العناية به، فهماً وحفظاً وتطبيقاً، واتعاظاً. وأن ما فيه من الوعظ والإنذار كاف لمن أراد أن يتعظ ويتذكر به الحق، والهدى، ويسلك به الطريق المستقيم الذي ينجيه من العذاب، ويدخل به الجنات.

وقد بدأ البيان بالقسم الملتحق بحرف التحقيق ﴿ **وَلَقَدْ** ﴾ بأن سهلنا القرآن العظيم. بما يفيد أنه لا صعوبة في فهمه والاتعاظ به أبداً. وهذا هو التكرار الثاني لهذه الآية الكريمة، والتي تفيد التأكيد على أن في القرآن الكريم ما يجعل الإنسان يتذكر الحق فيقبله، ويدرك الباطل فيجتنبه. مع ما هو عليه من اليسر فهماً وحفظاً وعملاً بتشريعه، فليس هناك أي صعوبة تواجه من أراد منهج القرآن العظيم ومواعظه وتشريعه. فعليكم به إيها الناس.

﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾** ﴾

بعد أن وعظ الله تعالى عباده بما كان من المكذبين من قوم نوح عليه السلام، وقوم عاد الذين كذبوا برسول الله هود عليه السلام، ينتقل البيان إلى المزيد من الاستدلال بغيرهم من الأقوام التي كذبت المرسلين. فيذكر الله تبارك وتعالى قصة قوم ثمود، الذين كذبوا رسول الله صالح عليه الصلاة والسلام، والذي ينتهي نسبه إلى نوح عليه السلام. وكانت منازلهم بحجر بين الشام والمدينة، في أرض الحجر بمنطقة العلا. والتي قد ورد تفصيلاً لها في عدد من السور، منها: الأعراف. وهود، والشعراء، والنمل. فانتقل الوعظ للْمُخَاطَبين بما كان من قوم ثمود مع رسولهم صالح عليه الصلاة والسلام فقال تعالى ﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ** ﴾ كذبت ثمود رسولهم

صالح عليه السلام بما جاءهم من الإنذارات، والتي وردت بصيغة الجمع ﴿ بِٱلنُّذُرِ ﴾ لإفادة كثرة ما أنذرهم مما هم عليه من الكفر. وقد أفرد البيان قصة قوم ثمود بالذكر من غير عطف على قصة قوم عاد، وذلك لإظهار عظمة ما جاءهم من العذاب، نتيجة تكذيبهم لرسولهم صالح عليه الصلاة والسلام. حيث عقروا ناقة الله تعالى التي جعلها الله تعالى آية عظيمة، ومعجزة ظاهرة واضحة. إذ أخرجها لهم من صخرة عظيمة صماء.

ثم يخبر الله تعالى بما قاله قوم ثمود لرسولهم صالح عليه الصلاة والسلام، فقال تعالى ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴾ فما أنت إلا آدمي من البشر، تماثلنا في الخصائص البشرية، فكيف تزيد علينا بالنبوة والرسالة؟ فهو سؤال استنكار من الكافرين على جنس الرسول. إذ منعهم وحدة الجنس البشري من قبول الحق، مع قوة حجة ما جاء به نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام بالبراهين الدالة على نبوته عليه الصلاة والسلام ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ ﴾ فتعجبهم لا يتجاوز كونه قولاً قالوه بأفواههم، منافياً للحقيقة التي أدركوها. فليس للعبد أن يحدد من يبعثه الله تعالى نبياً ورسولاً. مما يفيد أنهم أدركوا الحقيقة، ولكن قالوا ذلك من أجل مساندة جحودهم وتكذيبهم بقول قالوه، فهو مجرد قول، لا حقيقة له، ولكن ليتحقق به مآرب أخرى أرادوها، وهو إشغال الناس عن الحق. فما أنت إلا آدمي من البشر، تماثلنا في الخصائص البشرية، فكيف تزيد علينا بالنبوة والرسالة، بما يفيد أنهم لا يرون أن يكون الرسول بشراً. وقد فاتهم أن النبوة اصطفاء من الله تعالى لمن يشاء من عباده، وأن الفوارق البشرية ليست محصورة في المهنة والمال والوجاهة التي تعارف الناس عليها، بل هناك فوارق بين الناس، قد علم الله رب العالمين حقائقها، والتي منها: الصدق والأمانة والأخلاق والأهلية التي يحددها الله تبارك وتعالى فيمن يصطفيه ويختاره لرسالته.

ثم بعد استنكارهم رتبوا وركبوا على ذلك نتيجتهم المبنية على ما رغبته وهوته أهواءهم ﴿ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴾ فإن اتبعناك وأنت مثلنا من جنس البشر، فإننا إذاً لفي خطأ وبُعد عن الصواب. وكذلك نكون في ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ وهو جمع سعير. أي: لفي عناء وعذاب، بسبب البعد عن الصواب. قال قتادة رحمه الله تعالى: عُني بالسُّعُر: العناء. وعنه أيضاً: في عناء وتعب[١] وقال ابن الجوزي: يُقال: ناقة مسعورة، أي: كأنها مجنونة من النشاط[٢] مما يفيد تعليلهم القاسي الذي يدل على شدة عدم قبولهم التصديق بما جاءهم به رسولهم من الحق.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣٩/٢٢-١٤٠)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٤٨/٧)

ثم يتمادون في الطغيان بما أملاه عليهم استنكافهم واستكبارهم وتماديهم في الكذب، فقال تعالى عنهم: أنهم قالوا أيضاً ﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ أيتم تخصيصه بالرسالة من بين قوم ثمود؟ سؤال استبعاد واستنكار ﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ سؤال اعتراض واستنكار منهم على هذا الاصطفاء الذي حظي به صالح عليه الصلاة والسلام من الله تعالى. بما يفيد كيف يتم اختياره من بين قوم ثمود وفيه من هو أكثر جاهاً؟ بحسب مقاييسهم الدنيوية. ثم بناء على هذا الجهل في التعليل يقررون بالنتيجة التي لا تقل عما سبق في عنفها ومجاوزتها للحق ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ أي: قد تجاوز حدوده، وتطاوله علينا. فإن الحق كما يزعمون أن صالحاً عليه السلام يفتري عليهم، بدعوة أنه رسول من الله تعالى. ولذلك وصفوه بأنه ﴿كَذَّابٌ ﴾ وكذلك وصفوه بأنه رجل ﴿أَشِرٌ ﴾ أي: أنه معجب بنفسه، ومتجاوز ومتطاول في حد كذبه، مع تكبره بما نَسَبَهُ إلى نفسه من النبوة والرسالة، فإنه يريد أن يتعاظم ويتطاول علينا بذلك. مما يبين أن أهل الكفر يقلبون الحقائق، ويؤولون الحق، فيجعلونه باطلاً، حتى يُقنعوا أنفسهم وغيرهم بما يفترون من الكذب.

ثم يخبر الله تعالى على سبيل التهديد والوعيد عن حصول العلم بما يفترون على الحق المبين. فقال تعالى ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ سيعلمون في القريب العاجل الذي هو يوم القيامة من هو الكذاب الأشر، هل هو نبي الله عليه الصلاة والسلام؟ أم الذين كذبوا به؟ فقد هددهم الله تعالى بهذا البيان العظيم، ويهدد به كل من سار مسير قوم ثمود مع نبيهم صالح عليه السلام. فانتبهوا يا من تكفرون بمحمد صلى الله عليه وسلم، فإن موعد يوم القيامة قريب جداً. إلى درجة أن الله تعالى وصف موعده بالدلالة الزمنية القريبة جداً ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا ﴾ الزمن القريب مما هم مستقبلوه. بما يفيد التقريب والتفظيع، وعظيم التهديد والإنذار.

ثم يخبر الله تعالى بما أخبر به نبيه صالح عليه السلام، فقال تعالى ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴾ إنا مخرجون لهم الناقة من الصخرة، اختباراً وامتحاناً لهم، فانتظر ما سيكون من الأمر، واصبر على ما يكون منهم. لأنهم طلبوا من رسول الله صالح عليه الصلاة والسلام معجزة حتى يؤمنوا. فأخرج الله تعالى ناقة من صخرة عظيمة، كما ورد تفاصيلها في سورة الأعراف، وهود، والشعراء، وغيرها من السور.

فقد أخبر تبارك وتعالى بأنه مُرسل الناقة اختباراً ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ والفتنة بمعنى الاختبار الذي يكشف الصادق من المكذب، والمطيع من العاصي. ثم يأمر الله تعالى نبيه ورسوله صالح عليه السلام بقاعدتين مهمتين وعظيمتين: الأولى: ﴿ فَٱرْتَقِبْهُمْ ﴾ وهو الانتظار مع التحري لما سيكون من أمرهم.

والقاعدة الثانية: ﴿ وَٱصۡطَبِرۡ ﴾ وتحلى بالصبر على ما يكون منهم من الاعتراض والتكذيب، وكذلك الصبر في ترقبك لهم، ولما سيحل بهم. مما يبين أهمية الصبر، وعدم استعجال النتائج في كل أمر وشأن. لتكون قاعدة لكل مؤمن بأن يترقب نتائج ما يحل بأهل الظلم والباطل في كل مستوى وأمر وشأن، وأن يتحلى بالصبر، ليرى نتيجة وحكم الله تعالى بالظالمين. بل من عمق دلالة ﴿ وَٱصۡطَبِرۡ ﴾ أنه زِيد فيها بحرف **(ط)** فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، أي: عظيم المجاهدة في الصبر عليهم. مما يفيد أنه سيجد منهم ما ينتهي به الصبر. ولكن جاهد واحبس نفسك على الصير بما ستجده منهم، من مشقة العناد وبطر الحق، والجحود لآية الناقة العظيمة. كما يبين ذلك علم الله تعالى المسبق بما سيكونون عليه قبل أن يكون، ولذلك أمر رسوله صالح عليه الصلاة والسلام بالصبر والانتظار. وفي ذلك تحذير لمن صَدَّ ورد وأنكر رسالة رسوله محمد صلى الله عليه وسل.

وبعد أن أرسل الله تعالى الناقة التي أخرجها من الصخرة، يبين ويُظهر سبحانه وتعالى عظيم آياته في مقدار شربها للماء الذي يستوعب عطاء البئر ليوم كامل، فقال تعالى ﴿ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴾ أخبر أيها الرسول قومك: بأن ماء البئر الذي يشربون منه قد أمرنا بأن يكون مقسوماً بين قومك وبين الناقة، لهم يوم، وللناقة يوم ﴿ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴾ كل يوم يحضره من كانت قسمته للشرب، ويحظر على الطرف الثاني الذي ليس له ذلك اليوم أن يشرب منه. قال قتادة رحمه الله تعالى: كانت إذا كان يوم شربها، شربت الماء أول النهار، وسقتهم اللبن آخر النهار[١] وفي ذلك آية لهم أن يكون لها ذلك النصيب من الماء، ولهم نصيب عظيم من لبنها الذي لا يمكن أن يكون من مثيلاتها. فهي مخالفة لما خلق الله تعالى عليه مثيلاتها، لتكون آية من كل وجه.

ولكنهم تمادوا في البطر والعناد، فقال الله تعالى عنهم ﴿ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ فطلبوا من صاحبهم، فعقر الناقة بقتلها. فقتلوها، قال ابن قتيبة: والعقر يكون بمعنى القتل[٢] والعقر هو الجرح، وقيل قطع عضو يؤثر في النفس[٣] فيتلفها. وأسند العقر في هذه الآية للعاقر بعينه، ولكن يدخل معه الجميع لأنهم الطالبون منه ذلك بالتحضيض الذي أظهره نداءهم لهم ﴿ فَنَادَوۡاْ ﴾ فأسند النداء إل الجميع. وسماه ﴿ صَاحِبَهُمۡ ﴾ ليفيد مصاحبته لهم، ومصاحبتهم له. بأنه منهم ومعهم على كفرهم وعنادهم ﴿ فَتَعَاطَىٰ ﴾ أي: تفاعل معهم بالمطاوعة،

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤٨/٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٣/٣)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٣/٧)

فتناول الناقة بيده ﴿ فَعَقَرَ ﴾ فقتلها بضربها حتى ماتت. وقد أفادت دلالة ﴿ فَتَعَاطَىٰ ﴾ الجرأة على إتيان هذا العمل الفظيع، من غير أي اهتمام بعاقبة ذلك. مما يبين أن العناد بالبطر يجعل الفاجر يتمادى في طغيانه. وإذا كان هذا مع آية من آيات الله تعالى، فكيف بطغيانهم وتجبرهم في التعامل مع غيرهم. مما يبين شدة الموعظة وقوتها لقوم الرسول صلى الله عليه وسلم من أن يكون شأنهم مع رسولهم صلى الله عليه وسلم وما جاءهم من الحق كمثل قوم ثمود. بل هي موعظة لكل إنسان ألا يكون كذلك، فليعتبر بغيره.

ثم يلفت سبحانه وتعالى الانتباه إلى أخذ العبرة والعظة مما أصاب قوم ثمود من العذاب الذي سلطه عليهم ربنا تبارك وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ فتأملوا أيها المكذبون برسولنا محمد صلى الله عليه وسلم كيف كان شدة عذابي بمن كفر بآيتنا، وبرسولنا صالح عليه الصلاة والسلام. وهو سؤال يقرر به سبحانه وتعالى قوة عذابه، ويستنكر به على من لم يتعظ به.

وقد أفادت دلالة ﴿ فَكَيْفَ ﴾ استثارة الذهن للتأمل والتفكر في حالهم، وما كان منهم من البطر، ومن قلب الحقائق، والتعدي على رسوله، وعلى آياته، وعلى دينه، واستثارة التفكر في مصيرهم وما لحقهم من العذاب الشنيع. كما أن دلالة ﴿ فَكَيْفَ ﴾ في خطاب القرآن الكريم تستثير الذهن، ليتصور حقائق البيان، ونقل الْمُخَاطَب إلى وقائع الحدث، بما يتحقق به كمال الوعظ، وأخذ العبرة من القول والبيان في كتاب الله تعالى. مما يدل على نعمة التأمل والملاحظة والاستنتاج والاستنباط من واقع الحال. فإن نظر البصر والبصيرة نعمة عظيمة، ليتفقه به الإنسان في المنافع والمصالح، وفي الخطأ والصواب، وأنه وسيلة من وسائل المعرفة لاكتشاف الحقائق، وما تدل عليه.

فتأملوا أيها الْمُخَاطَبون كيف كان عذابي بعد إنذاري لهم، مما يبين أن الله تعالى قد مَدَّهم بالإنذار بعد الإنذار، لأن دلالة ﴿وَنُذُرِ ﴾ تفيد الجمع، والكثرة. فقد تعاقب إنذار رسول الله صالح عليه السلام لهم، كما تعاقب إنذار رسولنا محمد لكم، صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر الله تعالى بعذابه لهم، فقال تعالى ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴾ فقد نالهم العذاب مِنَّا لهم بصيحة واحدة فقط. وذلك أن جبريل عليه السلام قد صاح بهم صيحة واحدة فقط، فجعلت الكفرة خامدين. وقد نَجَّى اللهُ تعالى صالحاً ومن معه من المؤمنين ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴾ فكانوا بهذه الصيحة كالزرع اليابس الذي تهشم مما أصابه من الجفاف. فالهشيم ما تكسر نتيجة الجفاف، وما أصابه من الحرارة التي جعلته يتحطم بعضه فوق بعض. ويُقصد بوصف شأنهم ﴿ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴾

من الحظيرة، وهو الشجر الذي يُتخَذ منه حظيرة الغنم. قال ابن عباس رضي الله عنهما عن ﴿ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك[١] قال الزمخشري رحمه الله تعالى: الذي يعمل الحظيرة، وما يحتظر به، ييبس بطول الزمان، وتتوطؤه البهائم، فيتحطم ويتهشم[٢] فأصبحوا في ديارهم ساقطين على وجوههم موتى، وقد التصقت وجوههم بالتراب. فأصبحت صورتهم وهيئتهم في أرذل هيئة وصورة، وأحقر موقف لهم في الدنيا.

فمثلهم كمثل الذي لم يكن موجوداً، ولم يحصل لهم فيها تنعم وحياة، وغنى. وهي صورة لمن فارق الحياة على شر ومهانة، إذ لم يبق لهم أثر يُذْكَر إلا الموعظة بهم، ففارقوا ما كانوا يتنعمون به إلى الجحيم المقيم. ليكون ذلك عبرة وعظة لكل أحد من الناس. فتأملوا أيها الْمُخَاطَبون كيف كان عذابي بعد إنذاري لهم، مما يبين أن الله تعالى قد مَدَّهم بالإنذار بعد الإنذار، ولكنهم لم يستجيبوا مع ما أنذرهم الله تعالى به ومنه. فاعتبروا يا أيها الناس بذلك.

ثم ينتقل التوجيه الكريم للمرة الثالث إلى بيان أن من كريم إفضاله أنه يسر القرآن الكريم الذي من مقاصده التذكير لمن أراد أن يتعظ ويتذكر. فقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ولقد يسرنا وسهلنا أسلوب وألفاظ ومعاني ودلالات القرآن العظيم ﴿لِلذِّكْرِ ﴾ لمن أراد أن يقرأه، ويعتبر به ويتذكر، ويتعظ ويعظ به، ويحتكم إليه، ويتخذه شريعة له ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ فهل من ذاكر يتذكر به، فيقرأه ويتعظ به، ويتمسك به. وهو سؤال تحضيض وحث على العناية به، فهماً وحفظاً وتطبيقاً، واتعاظاً. وأن ما فيه من الوعظ والإنذار كاف لمن أراد أن يتعظ ويتذكر به الحق، والهدى، الطريق المستقيم. وقد بدأ البيان بلام القسم المتصدر لحرف التحقيق والتأكيد ﴿ وَلَقَدْ ﴾ بأن سهلنا القرآن العظيم. بما يفيد أنه لا صعوبة في فهمه والاتعاظ به أبداً. وهذا هو التكرار الثالث لهذه الآية الكريمة، والتي تفيد التأكيد على أن في القرآن الكريم ما يجعل الإنسان يتذكر الحق فيقبله، ويدرك الباطل فيجتنبه. مع ما هو عليه من اليسر فهماً وحفظاً وعملاً بتشريعه، فليس هناك أي صعوبة تواجه من أراد منهج القرآن ومواعظه وتشريعه. فعليكم به إيها الناس.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا
كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩٣/١٧)
(٢) الزمخشري، الكشاف (٤٣٧/٤)

فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

وبعد أن وعظ الله تعالى عباده بما كان من المكذبين من قوم نوح عليه السلام، وقوم عاد الذين كذبوا برسول الله هود عليه السلام، وقوم ثمود الذين كذبوا برسولهم صالح عليه السلام، ينتقل البيان إلى المزيد من الاستدلال بغيرهم من الأقوام التي كذبت المرسلين. فيذكر الله تبارك وتعالى قصة قوم لوط، الذين كذبوا رسول الله لوط عليه الصلاة والسلام. ولوط هو ابن هارون بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام(١)وقد ورد تفصيلاً لها في عدد من السور، منها: الأعراف. وهود، والشعراء. فقال تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴾ فقد كذب قوم لوط بما جاءهم من الإنذار من عذاب الله تعالى إن لم يطيعوا ويأتمروا بدين الله تعالى، وقد ورد الإنذار بصيغة الجمع ﴿ بِٱلنُّذُرِ ﴾ لإفادة كثرة ما أنذرهم مما هم عليه من الكفر وفاحشة اللواط. وقد أفرد البيان قصة قوم لوط بالذكر من غير عطف على قصة قوم ثمود التي وردت قبلها، وذلك لإظهار فجور ما كانوا عليه من الكفر والعمل الشنيع من اللواط وقطع الطريق.

ثم يخبر الله تعالى بما أصابهم من العذاب لقاء تكذيبهم رسولهم لوط عليه الصلاة والسلام، فقال تعالى ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ إنا أرسلنا على قوم لوط المكذبين لرسولهم لوط عليه الصلاة والسلام ﴿ حَاصِبًا ﴾ وهي الريح المحملة بالحصباء التي هي ذرات الرمل، فترميهم بها. ثم استثنى تبارك وتعالى الناجين ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ﴾ فقد أنجيناهم من ذلك العذاب. وأفاد قوله تعالى ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ﴾ أنه لم يؤمن معه أحد إلا من ينتمون إليه، وهم بناته المؤمنات، ولذلك ورد الحصر في آل لوط فقط عليه السلام. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ولم يؤمن بلوط من قومه أحد. ولا رجل واحد، حتى ولا امرأته، أصابها ما أصاب قومها. وخرج نبي الله لوط عليه السلام وبنات له من بين أظهرهم، سالمين لم يمسسهم سوء(٢) وكان وقت خروجهم من مكان العذاب قبل وقوعه بقومه آخر الليل. قال تعالى ﴿ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ فإن نجاتهم كانت قُبيل

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٤٠)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢٨٥)

حلول العذاب بقومه، أي: وقت السحر. وهو ما بين آخر الليل وبين طلوع الفجر، أي: عند اختلاط سواد الليل ببياض أول النهار[١] وهو الوقت الذي لا ينتبه فيه القوم المنغمسين في الضلال.

ثم يخبر جَلَّ جلاله بعظيم امتنانه على آل لوط بالنجاة من عذاب قومه، فقال تعالى ﴿ نِّعۡمَةً مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴾ فقد كانت نجاتهم إنعاماً وكرماً مِنَّا، بما يدل على العناية والحفاوة من الله عَزَّ وجل برسوله لوط ومن معه. ثم يخبر تبارك وتعالى بأن هذا الإنجاء والإنعام لكل من اتصف بشكر ربه بالطاعة والامتثال ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴾ وبمثل ما أنجينا لوط ومن معه من العذاب، كذلك تمتد نعمتنا على كل من شكر ربه سبحانه وتعالى بالطاعة والامتثال. مما يفيد ويبين أن من دلالات الشكر هو الطاعة والامتثال، فالطاعة والاتباع لله تعالى تعني أن العبد قد حمد ربه على هذه النعمة فتمسك بها عملاً وتطبيقاً. وأن له من الله تعالى الكرامة والتكريم. وفي هذا عظيم الترغيب في العناية بطاعة الله تعالى، والامتثال لشرعه الحنيف.

ثم يبين تبارك وتعالى أنه لم يهلك قوم لوط ابتداء إلا بعد أن حاول وبذل رسوله ونبيه لوط عليه الصلاة والسلام مع قومه غاية الإنذار من بطش ربهم بهم إن لم يستجيبوا لشريعة الله تعالى ودينه القويم، فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ﴾ لقد حذرهم وخوفهم ﴿ بَطۡشَتَنَا ﴾ أي: من شديد عقابنا، لأن البطش هو الإهلاك بعنف وشدة. ولكن لم يستجيبوا ﴿ فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ﴾ أي: فجادلوا بالافتراء والتحدي من التكذيب والاستهزاء بما أنذرهم وحذرهم منه. والمماراة تعني الجدال مع التحدي. فكان هذا هو أسلوبهم مع نبي الله ورسوله لوط عليه الصلاة والسلام. وقد أكد تبارك وتعالى ذلك في مطلع الآية بلام القسم وحرف التحقيق ﴿ وَلَقَدۡ ﴾ بما يفيد تعظيم هذا الحدث من الوعظ العظيم. مما يبين تطاولهم وتماديهم في الباطل الذي كانوا عليه. وفي هذا تحذير لمشركي مكة ولغيرهم من بطش ربهم بهم إن لم يستجيبوا لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن قبحهم، وقبح أخلاقهم وكفرهم، وذلك ببيان تماديهم حتى على ضيوف نبيهم لوط. فقال تعالى ﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ ولقد حاولوا ثنيه ودفعه عن ضيوفه ليتمكنوا من فعل الفاحشة بهم، لأنهم يظنون أنهم من البشر، وهم ملائكة الله تعالى على صورة البشر. وقد أسند المراودة إليهم جميعاً، لإفادة أنهم كلهم على هذا المنهج الفاسد، بصرف النظر عن النفر الذين قاموا بالمحاولة والمراودة. ولكن قدرة الله تعالى أعظم، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ ﴾ فحجبنا

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧/٩٣-٩٤)

أعينهم عن أن يروا ضيوفه من الملائكة، الذين أتوا لإخباره بالخروج من أجل إهلاك قومه. مما يبين ويفيد إظهار عظمة قدرة الله تعالى، فإذا أراد منع شيء منعه بما يشاء من المنع. مما يُعَلِّم المؤمن أهمية التوكل والاعتماد على الله تعالى، وفي نفس الوقت يُنذر كل من تسول له نفسه الظلم، بأن لله تعالى كمال القدرة والتدبير والسلطان، فاحذروه وأطيعوا أمره عَزَّ في علاه.

وقيل لهم على سبيل الازدراء والتهكم والسخرية بهم ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ ذوقوا عذابي الشديد الذي نزل بكم نتيجة مخالفتكم لما أنذرناكم منه. فكذلك أيها الناس اتعظوا لئلا يصيبكم ما أنذركم الله تعالى به لمن عصاه. ثم يذكر تبارك وتعالى موعد عذابهم الذي حل بهم، فقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ ولقد فاجأهم عذاب ربهم صبيحة أول النهار ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم ﴾ أي: نزل العذاب بهم صبيحة النهار من أوله ﴿ بُكْرَةً ﴾ لإفادة التعجيل بالعذاب لهم. فقد نزل بهم عذاب الله تعالى، فكان عذاباً متواصلاً حتى أهلكهم جميعاً، فسماه الله تعالى ﴿ عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ فكان عذابنا مستقر فيهم حتى قُضِي عليهم، إذ أحاط بهم، فلم يترك لهم مجالاً ولا فسحة حتى أهلكهم جميعاً. وقد كان عذابهم بقلب قريتهم عليهم، إذ جعل أعلاها أسفلها. ثم أتبعهم بحجارة من سجيل منضود. وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى، أي: فجاءهم الصوت القاصف عند شروق الشمس، وهو طلوعها، مع رفع قريتهم إلى عنان السماء ثم قلبها(١) كما قال تعالى في سورة الحجر ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ فقد رفع الله تعالى قريتهم، فجعل عالي أرضهم سافلها، وأمطر الله تعالى عليهم حجارة من طين.

ثم يكرر الله تعالى قوله عَزَّ وجل ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ تأكيداً وتوبيخاً، وتحذيراً للمشركين المكذبين وغيرهم. فقيل لهم على سبيل الازدراء والتهكم والسخرية بهم ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ ذوقوا عذابي الشديد الذي نزل بكم، نتيجة مخالفتكم لما أنذرناكم منه. فكذلك أيها الناس اتعظوا لئلا يصيبكم ما أنذركم الله تعالى به لمن عصاه.

ثم ينتقل التوجيه الكريم للمرة الرابعة إلى بيان أن من كريم إفضاله أنه يسر القرآن الكريم الذي من مقاصده التذكير لمن أراد أن يتعظ ويتذكر. فقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ولقد يسرنا وسهلنا أسلوب وألفاظ ومعاني ودلالات القرآن العظيم ﴿ لِلذِّكْرِ ﴾ لمن أراد أن يقرأه، ويعتبر به،

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٥٧٥)

ويحفظه، ويتعظ ويعظ به، ويحتكم إليه، ويتخذه شريعة له ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ فهل من ذاكر يتذكر به، فيقرأه ويتعظ به، ويتمسك به. وهو سؤال تحضيض وحث على العناية به، فهماً وحفظاً وتطبيقاً، واتعاظاً. وأن ما فيه من الوعظ والإنذار كاف لمن أراد أن يتعظ ويتذكر به الحق، والهدى، الطريق المستقيم. وقد بدأ البيان بلام القسم الملتحق بحرف التحقيق ﴿ وَلَقَدْ ﴾ بأن سهلنا القرآن العظيم. بما يفيد أنه لا صعوبة في فهمه والاتعاظ به أبداً. وهذا هو التكرار الرابعة لهذه الآية الكريمة، والتي تفيد التأكيد على أن في القرآن الكريم ما يجعل الإنسان يتذكر الحق فيقبله، ويدرك الباطل فيجتنبه. مع ما هو عليه من اليسر فهماً وحفظاً وعملاً بتشريعه، فليس هناك أي صعوبة تواجه من أراد منهج القرآن ومواعظه وتشريعه. فعليكم به إيها الناس.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾

وبعد أن وعظ الله تعالى عباده بما كان من المكذبين من قوم نوح عليه السلام، وقوم عاد الذين كذبوا برسول الله هود عليه السلام، وقوم ثمود الذين كذبوا برسولهم صالح عليه السلام، وقوم لوط الذين كذبوا رسولهم لوط عليه السلام، ينتقل البيان إلى المزيد من الاستدلال بغيرهم من الأقوام التي كذبت المرسلين. فيذكر الله تبارك وتعالى قصة قوم فرعون، الذين كذبوا رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام. لِمَا في قصتهم من العبر والمواعظ للمشركين ولغيرهم ممن كذب ويكذب برسالة محمد صلى الله عليه وسلم. فقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴾ ولقد أرسلنا لفرعون وقومه ﴿ ٱلنُّذُرُ ﴾ وهو جمع نذير، وقد ورد بصيغة الجمع لإفادة كثرة الإنذار من موسى عليه الصلاة والسلام لفرعون وقومه، مع كثرة الآيات وتعددها. وقد استهل سبحانه وتعالى البيان بلام القسم المتصدر لحرف التحقيق والتأكيد ﴿ وَلَقَدْ ﴾ ولذي أفاد قوة الإنذار والوعظ للمشركين ولغيرهم حتى يتعظوا بمن كان قبلهم من المكذبين بالرسل عليهم السلام، وكذلك فيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم بما حصل من الأقوام السابقة مع المرسلين عليهم السلام، ومنهم كليم الله موسى عليه الصلاة والسلام.

وقد أفاد المجيء في قوله عَزَّ وجل ﴿ جَآءَ ﴾ أن نعمة الدين قد وردتهم إلى حدهم ومكانهم، من غير عناء ولا مشقة منهم. فقد وردهم ما ينجيهم من عذاب الله تعالى من غير كلفة عليهم، إلا أنهم رفضوا الحق، وآثروا ما هم عليه من الباطل. كما أفادت دلالة ﴿ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ﴾ أن المخصوصين بتكذيب ٱلنُّذُر هم فرعون وأتباعه، وعموم قومه.

فقد كذبوا بجميع الآيات من الحجج والبراهين الدلة على نبوة موسى عليه الصلاة والسلام، وما يحمله لهم من رسالة الله تعالى لهم. فقال تبارك وتعالى ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ﴾ فقد أنكروا آيات الله تعالى العظيمة جميعها، ليدل على كثرتها وتنوعها، وهي الآيات التي أيد الله تعالى بها موسى عليه الصلاة والسلام. وهي: العصا التي تحولت إلى حية تسعى، واليد التي تخرج بيضاء من غير سوء، والطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدَّم، والسنين، ونقص الثمرات. فهي آيات تبهر العقول. فقد زود الله تعالى موسى عليه السلام بسلطان الحجة، وهي الآيات والبراهين البينة الواضحة التي تهزم وتغلب كل من يعارضها. بل إن سجود السحرة دليل لهم على أن العصا لم تكن سحراً، وذلك عندما التهمت عصا موسى عليه السلام حبالهم وعصيهم، فقد كان ذلك الحدث سلطان واضح بأنه رسول من الله سبحانه وتعالى. فشملت الآيات الوقائع التي يقهر بها الله تعالى المكذبين.

وقد أخبر تبارك وتعالى عن قوة استعلاء فرعون وقومه، إلى حد أنهم لم يؤمنوا ولا بواحدة منها، فقال تعالى ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا ﴾ أنكروها جميعها، فلم يؤمنوا بشيء منها، مع تعددها وتنوعها. بما يفيد عظيم طغيانهم. ومقابل ذلك الجحود والتكذيب انتقم الله تعالى منهم. فقال عَزَّ وجل ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ﴾ فأخذهم الله تعالى بالعذاب الشديد، وذلك بإغراق فرعون وجنوده في البحر. فغشاهم الموج بمائه حتى أهلكهم.

وقد وصف الله تعالى ذلك العذاب بتعظيم صفاته سبحانه وتعالى. فقال جَلَّ شأنه ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُمۡ ﴾ والأخذ يفيد في هذا السياق كمال القدرة التي استوعبتهم جميعاً، فأصبحوا في قبضة قدرته جَلَّ شأنه. ثم وصف هذا الأخذ بأنه ﴿ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ﴾ أخذ من اتصف بكمال العزة مع كمال القدرة التي تستوفي كمال إرادته سبحانه وتعالى بهم، وبما يشاء. وبما يفيد اعتبروا أيها المشركون بما كان من ربكم مع فرعون وقومه، فلا تتعاظموا على رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم حتى لا يأخذكم ربكم بما تستحقون من العذاب، كما أخذ فرعون وقومه، ومن قبل ذلك قوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط. فهو تحذير لكل طاغية بكفره، بأن الله تعالى للجاحدين بالمرصاد. كما أن في هذا الإخبار التفصيلي لأحوال تلك الأمم ما يبين أن هذا القرآن العظيم حق من الله تعالى، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله، بلا ريب ولا أدنى شك، فلم يكن له علم بتلك التفاصيل الدقيقة من أحوال تلك الأمم، فهو لا يقرأ ولا يكتب عليه الصلاة والسلام.

ثم ينذر ويخوف تبارك وتعالى المشركين في مكة، بسؤال يستثير الذهن نحو التأمل والتفكر والاتعاظ بما سبق من الوعظ. فيقول سبحانه وتعالى ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ هل كفاركم أيها المشركون ﴿ خَيْرٌ ﴾ وأفضل وأشد وأقوى ﴿ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ ﴾ أي: من قوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط، وفرعون وجنوده. سؤال استنكار، وتقرير، يستنكر به عقولهم، وما وصلوا إليه من عدم الاعتبار، وكذلك هو سؤال تقريري بأنكم لستم بأقوى ممن سبقكم، وقد أهلكناهم ودمرناهم تدميرا. ﴿ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ أو أن لكم حصانة من ربكم تبارك وتعالى في ﴿ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ أي: الكتب المتقدمة التي أنزلها الله تعالى على رُسُلِه من قبل؟ سؤال يعيدهم لمحور التأمل والتفكير، ووجوب الاتعاظ.

ثم ينقلهم إلى ما يدور في أذهانهم، من الاعتزاز بقوتهم وشأنهم. فيقول عَزَّ وجل ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ أم أنهم يقولون ما يمدحون ويُشِيدُون به على أنفسهم، ويتعالون به على رسولنا صلى الله عليه وسلم ودينيا؟ فيقولون: نحن يد واحدة على من خالفنا، وأننا أُولُوا حزم وعزم ورأي واحد، فلا يغلبنا من أرادنا بسوء، فإننا ننتصر بقوتنا وجمعنا وشدتنا عليه. سؤال يعيدهم إلى التفكير لما يدور في أذهانهم وخيالهم الهش الضعيف. فقولكم هذا مهزوم أما عزة الله تعالى وقهره وقدرته، فانتبهوا واتعظوا بما وعظناكم به. وهذا من لطف الله تعالى بهم، إذ يبين لهم، ويحلل لهم ما في نفوسهم، بما يجعلهم يستبعدون ما يرون من قوتهم أمام قوة الله تعالى ومراده. كما يُعَلِّم المؤمنين منهجية إقامة الحجة. مما يفيد أن القرآن الكريم يحمل العلم وتفاصيله ومنهج تعليمه، ويحمل الإنذار لمن تعالى على ربه سبحانه وتعالى، وأنه بشارة لمن أطاع ربه عَزَّ في علاه.

ثم يتدرج البيان الكريم إلى الإخبار بضعفهم أمام قوة الله تعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ فإنه مهما تحزبوا، واجتمعوا، وتكاثروا ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ ﴾ سَيُهزم جمعهم، وقد هزمهم الله تعالى في معركة بدر، مع كثرتهم وقلة عدد المؤمنين. فتحقق ما أخبر به جَلَّ شأنه. فإنهم سيهزمون ﴿ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ أي: ويهربون أمام قوة الله تعالى ونصره للمؤمنين، بل ومن شدة هزيمتهم أنهم ﴿ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ فيعطون المؤمنين ظهورهم، بما يدل على شدة خوفهم، ورغبتهم في النجاة، إذ انحصر مرادهم في سلامة أنفسهم، وقد ماتت شجاعتهم، وتحللت أمام قوة الله تعالى ، ونصره للمؤمنين مع قلة عددهم.

وقد ورد السياق بصيغة المستقبل ﴿ سَيُهْزَمُ ﴾ سوف تتحقق هزيمة اجتماعهم التي يتناصرون ويتفاخرون بها ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ فإن جمعهم مهزوم، وقد تحقق ما أخبر الله تعالى به ووعد.

ليكون ذلك آية باقية إلى قيام الساعة. وبما يثبت أن القرآن كلام الله تعالى، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، بلا ريب ولا شك. وأن هذا الدين حق. فهي آية باقية إلى قيام الساعة.

ثم يخبر الله تعالى بأن لهم موعد آخر مع العذاب، وهو عند قيام يوم القيامة. فقال تعالى ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ بل إن قيام يوم القيامة سيكون موعد لهم بالعذاب. ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ وعذاب يوم القيامة ﴿أَدۡهَىٰ ﴾ أعظم وأشد ﴿وَأَمَرُّ ﴾ أكثر ألماً وقسوة من مرارة عذاب الدنيا الذي حصل لهم بالقتل والأسر والإهانة والذل.

وقد بدأ البيان بحرف ﴿ بَلِ ﴾ الذي أفاد الانتقال بالتهديد والوعيد من عذاب الدنيا إلى عذاب يوم القيمة. فعذاب الآخرة أشد وأدهى وأمر عليهم من عذاب الدنيا. وورد تعظيم عذاب الآخرة بدلالة بُنْية دلالة قوله تعالى ﴿أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ إذ أفادت تعاظم الشدة بالدهاء، فهي ﴿أَدۡهَىٰ ﴾ وكذلك بالمرارة ﴿وَأَمَرُّ ﴾ وبالرغم من أن دلالة المرارة تُطلق على حاسة التذوق إلا أنه قد جِيء بها هنا للدلالة على قوة وشدة الانكسار والهوان والذل، فكما يتذوق الإنسان بأدق حواسه مرارة الشيء، فيمتعض منه أشد الامتعاض، فإنه سيكون حال ما يجده من عذاب الآخرة أشد مما يتذوق من مرارة الشيء المر بلسانه، ولا يستطيع أن يدفعه عن نفسه، كما يدفع المر بلسانه ونفله. مما يبين قوة بلاغة القرآن الكريم وإعجازه البياني المتجلي في دلالة ألفاظه العظيمة. مما يبين إعجازه في كل شيء، ومن كل وجه.

ثم يخبر الله تعالى بما سيكون عليه أولئك المجرمين الضالين. فقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴾ فكان القول لهم بمثل ما قالوا للمرسلين في الدنيا ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴾ فيرد الله تعالى عليهم بنفس الجواب، لكنه جواب صادق حقيقي ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴾ فسماهم بالمجرمين، والمجرم هو من ارتكب الفظيع من الفعل والقول، والكفر هو أعظم جرم يرتكبه الإنسان، لأنه يقود إلى كل جرم من الأفعال والأقوال العظيمة في الشناعة والإثم. وقد ابتدأ البيان بحرف ﴿ إِنَّ ﴾ لإعطاء دلالة التأكيد بما سيناله أهل الإجرام جزاء لكفرهم.

ثم يخبر الله تعالى أنهم في ذلك اليوم ﴿فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: إن المجرمين في ذهاب عن الحق. وأخذٌ على غير هدى ﴿وَسُعُرٖ ﴾ في احتراق من شدة العناء والنصب في

الباطل[١] فيحيط بهم ويكتنفهم أمران يعايشانه: الأول ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ أي: في متاهة وبعد عن الحق، فأدخلهم كفرهم في دائرة الضلال، ثم في متاهة العذاب الذي لا مخرج لهم منه أبداً، والأمر الثاني الذي هم فيه هو: ﴿وَسُعُرٍ﴾ وهو جمع سعير. أي: لفي عناء وعذاب، بسبب البعد عن الصواب. قال قتادة رحمه الله تعالى: عُني بالسُّعُر: العناء. وعنه أيضاً: في عناء وتعب[٢] وقال ابن الجوزي: يُقال: ناقة مسعورة، أي: كأنها مجنونة من النشاط[٣] مما يفيد أنهم في قوة من العذاب الشديد، والذي يستعر بهم من شدة حرارته. فهم في نصب في الدنيا من الباطل والضلال، وفي عذاب في الآخرة نتيجة كفرهم.

ثم يذكر تبارك وتعالى حالهم وهم في عذاب الآخرة، فيقول جَلَّ شأنه ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ ذلك اليوم الذي يسحبون على وجوههم في النار ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ بما يفيد العذاب مع الإهانة والإذلال. ويُقال لهم ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ فذوقوا أيها الكفرة ما تستحقون من العذاب، لقاء ما كنتم تكفرون به ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ ذوقوا ملاصقة ومساس ﴿سَقَرَ﴾ التي هي جهنم، بما كفرتم به من التكذيب بالمرسلين، وما أنزل الله تعالى عليهم من الكتب والحجج والبراهين، ومنهم خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، وما معه من القرآن العظيم، والحجج من الآيات والنُّذُر.

وفي هذا توبيخ وترهيب وإهانة لهم. وقد أعطت دلالة ﴿ذُوقُوا۟﴾ الاستطعام والتذوق، وذلك إشارة وبيان لأقوى الحواس التي هي حاسة الذوق، فباشروا الإحساس بالعذاب كما تباشرون تذوق الأشياء بحاسة الذوق. فكأن شدة العذاب من قوته كشدة التأثر والتأثير التي تكون بحاسة اللسان والفم. فنسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة. وكل هذا هو لقاء كفركم، ومقابل عنادكم. وفي ذلك موعظة وترهيب لكل كافر إلى يوم القيامة، بأن يحذر من عذاب هذا اليوم، فيغتنم حياته في الدنيا بطاعة الله تعالى، والدخول في الإسلام.

ثم يخبر الله تعالى عن كمال قدرته المقترنة بحكمته فيما يخلق، وما يُقدره، وما يشاء، فقال تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ إن كل شيء خلقناه وأوجدناه وقضيناه هو بتقدير مِنَّا ومقدار موزون. بما يفيد دقة وعناية تدبيره لخلقه جَلَّ شأنه. ثم يبين كمال سلطانه ونفاذ أمره عَزَّ وجل. فقال سبحانه وتعالى ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥٩/٢٢)

(٢) المرجع السابق (١٣٩/٢٢-١٤٠)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٤٨/٧)

﴿ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾ وإن أمرنا إذا أردنا شيئاً فإنه كائن بكلمة واحدة. إذ يقول سبحانه وتعالى للشيء: كن. فيصبح ويكون كما أراد سبحانه وتعالى. كما ورد في سورة غافر ﴿ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فيكون ذلك ﴿ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾ فيتحقق ويكون كالنظرة الخاطفة السريعة. أي: هو كلمح النظر الخاطف السريع العاجل، الذي لا مكوث له ولا تريث ولا انتظار معه. فيكون الشيء وفق ما قضى به سبحانه وتعالى من غير زيادة ولا نقصان. فزمن ما يقضي به سبحانه وتعالى كلمحة بصر خاطفة وسريعة، من غير تريث ولا انتظار. فما أعظم عظمة الله تعالى، فقد تعالت وسمت.

وقد أفادت الآية الكريمة أنه لا شيء يمتنع عن إرادته عَزَّ وجل. وقد أفاد ذلك العموم المطلق، لتشمل جميع ما أراده الله سبحانه وتعالى، وما يريده مما هو كائن وما سيكون إذا أراده الله عَزَّ وجل أن يكون. وفي هذا إظهار كمال قدرته عَزَّ وجل، وتحذير المعاندين من سرعة إصابتهم بما يأمر الله تعالى به. فيأخذهم العذاب بغتة وهم لا يشعرون إلا وقد وقع بهم ما أراده الله تعالى.

ومن دقائق البيان الرباني أنه سَمَّى سبحانه وتعالى ما يقع قبل وقوعه بالأمر ﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ ﴾ لأنه بمنزلة ما قد حصل، وأنه في حكم الموجود. وفي سورة: يس. قال تعالى ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فإن قيل: كيف سمى الشيء قبل وجوده شيئاً؟ فالجواب: أن الشيء وقع على العموم عند الله تعال قبل الخلق، لأنه بمنزلة ما قد عُوينَ وشُوهِد[1] وفي هذا قوة بيانية عظيمة، تتوافق مع قوة إرادته جَلَّ جلاله، وعظيم أمره وسلطانه. كما أن هذه الآية الكريمة تُعلم الإنسان عظمة الله تعالى، وعظمة قدرته، وقوة سلطانه، وسرعة تحقق ما يقضي به عَزَّ وجل، وألا يقيس الإنسان قدرة الخالق على المخلوق، فإن الله تعالى ليس كمثله شيء. مما يُقوي توكل المؤمن على ربه سبحانه وتعالى، وأن يستعين بربه عَزَّ وجل في كل شيء وأمر.

ثم يخبر جَلَّ في علاه عما سبق من إهلاك الأمم المكذبة، لينذر به المشركين وكل من كفر، فقال تعالى ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ لقد أهلكنا ﴿ أَشۡيَاعَكُمۡ ﴾ أي: من شابهكم وشايعكم فيما أنتم فيه من الكفر. وهم المماثلين لكم، من أشباهكم في الكفر والعناد، ونظائركم من الأمم السابقة. فشيعة الرجل هم المناصرون له على ما هو عليه، وكل أناس اتفقوا على شيء فقد تشايعوا عليه.

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٢٧/٤)

ثم يوجه الله تعالى للمشركين وكل من كفر السؤال الذي يستثير تفكيرهم عن مدى استفادتهم من أحوال من سبق من الأمم التي ماثلتهم في كفرهم وعنادهم، فأهلكهم الله تعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ **فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ فهل من متذكر منكم، فيعلم أن قدرة الله تعالى أسرع من لمح البصر، فتتذكرون وتعتبرون بما وقع على المكذبين من العذاب على الأمم السابقة التي كذبت بالرسل الذين أرسلهم الله تعالى لهم؟ سؤال يفيد الحث على الاعتبار قبل أن يحل بهم العذاب كما حل بمن سبقهم من الأمم المكذبة بالمرسلين عليهم الصلاة والسلام. وهذه دعوة لهم بأسلوب الترهيب والتهديد بأن يعيدوا النظر في قرار جحودهم بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا التعليم والحث والإنذار هو من رحمة الله تعالى بهم، رغبة منه عَزَّ وجل أن يسلكوا مسلك النجاة في الدنيا والآخرة.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بكمال علمه ما كان وما يكون وما سيكون قبل أن يكون، فقال تعالى ﴿ **وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ** ﴾ فإن كل شيء فعلوه هو مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي كتب الملائكة الحفظة التي تسجل ما يكون من العباد. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: يعني: في الكتب التي كتبتها الحفظة عليهم. وقد يحتمل أن يكون مراداً به في أم الكتاب[١] أي اللوح المحفوظ. وذكر ابن الجوزي والشوكاني رحمهما الله تعالى القولين كذلك[٢] فيشمل دلالة قوله تعالى ﴿ **وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ** ﴾ أي: في اللوح المحفوظ، بما سيكون منهم قبل أن يكون. وكذلك في كتب الملائكة الحفظة التي تسجل ما يكون من العباد. فيحاسَبون عليه. وهذا من بلاغة البيان في استيعابه لحقيقتين ثابتتين. فسبحان من أظهر الإعجاز في كتابه من كل وجه.

ثم يؤكد تبارك وتعالى عظيم علمه كما هي عظمة قدرته وسلطانه، فيقول عَزَّ وجل ﴿ **وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ** ﴾ فكل شيء مهما صَغُرَ أو كَبُرَ فهو ﴿ **مُّسْتَطَرٌ** ﴾ فهو مكتوب عند الله تعالى بحسب ما يكون من الخلق، أي: تدوين وتسطير ما صَغُرَ من الخير أو كَبُرَ، وكذلك ما صغر أو كَبُر من الشر، وعموم المعاصي. قال القرطبي رحمه الله تعالى: أي: كل ذنب كبير وصغير مكتوب على عامله، قبل أن يفعله، ليجازى به، ومكتوب إذا فعله[٣] فشمل ما هو محفوظ في اللوح عند الله سبحانه وتعالى، وما تكتبه الملائكة الحفظة التي تسجل ما يكون من العباد. بما يبين دقة الحساب والجزاء على الأعمال عند الله سبحانه وتعالى. فانتبهوا

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/١٦٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٢٥٢) الشوكاني، فتح القدير (٥/١٢٩)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧/٩٧)

واحذروا أيها الناس من أعمالكم وأقوالكم، فإنكم مجزيون عنها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. فإن الملائكة يكتبون ما يكون منكم، وهو محفوظ في اللوح المحفوظ قبل أن يكون، لعلم الله تعالى السابق بما سيكون من كل أحد من الخلق قبل أن يكون. ومعنى ﴿مُّسۡتَطَرٌ﴾ مسطور، ومكتوب. ومنه: سَطَّرتُ، أي: كتبت. بما يبين ويؤكد أن الله عَزَّ وجل يحفظ على الخلق ما يكون منهم. وكذلك علم الله تعالى المسبق لما سيكون قبل أن يكون، فهو مكتوب في اللوح المحفوظ عنده جَلَّ في علاه.

وبعد أن تناولت الآيات السابقة من سورة القمر بيان عظمة قدرته سبحانه وتعالى، وكمال علمه وقدرته، وعظيم سلطانه، وقهره وعقابه لمن عصاه، وجناته لمن أطاعه واتبع رضاه، يختتم سبحانه وتعالى سورة القمر ببيان ما أعده لعباده المتقين. فيقول عَزَّ شأنه ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾ إن الذين اتصفوا بالتقوى، التي جمعت الخوف من الله تعالى، والرغبة والطمع فيما عنده تبارك وتعالى، فاجتهدوا في اتقاء ما يُغضب ربهم عَزَّ وجل، واجتهدوا في طاعته جَلَّ جلاله، بالسعي في رضاه، فإنهم في الآخرة ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾ أي: سيكونون في البساتين، وبين الأنهار، يتنعمون فيها.

وقد بدأ وصف حال المتقين بحرف التأكيد ﴿إِنَّ﴾ الذي أفاد ثبوت ما سيكونون فيه من النعيم، وجاء السياق على وجه التحقق، فلم يكن على صيغة المستقبل، بالرغم من أن هذا في الآخرة التي سيعودون إليها مستقبلاً، إذ وَرَد الوصفُ لحالهم وكأنه قد تحقق، إمعاناً في التأكيد، والتشويق والاطماع والترغيب لهذا الإنسان بأن يكون من المتقين، فأعطى السياق قوة في تظافر الإعجاز البياني مع الإعجاز الدلالي، والإعجاز في القدرة وعظيم النعيم. وأفاد النص الكريم عظمة منزلة المتقين التي يجب أن يتسابق لها العباد. وأُضيف للجنات دلالة الاستمتاع الذي ينفي أضداده، فقال سبحانه وتعالى ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾ فمع ما حوته الجنان من البساتين وأنواع الزروع، فهناك الأنهار التي تتدفق بالمياه، وقد ورد وصف الأنهار وعددها في سورة محمد، فقال تعالى فيها ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ فصفة الجنة التي وعد الله تعالى بها المتقين فيها أنهار سارحة في أرجائها وجوانبها الكثيرة والمتعددة، فأنهار من مياه لم تتغير ريحتها، ولا طعمها، فنفى عنها التحول والتغير عن حقيقتها الأصلية، بما يثبت البقاء على حالتها التي خلقها اللهُ تعالى عليها، فهو الصافي الذي لا كدر فيه. وأنهار من اللبن، وهي كثيرة جارية لم يتغير طعمها، لأن الله تعالى خلقها ابتداء على هيئتها الأصلية، وليس كاللبن الذي يكون من البهائم، كالأغنام والإبل، والبقر، فيتغير طعمه بمرور الوقت. فأما ألبان الجنة فهي على أصلها

باقية. وكذلك أنهار من الخمر، الذي يستطيبها ويتلذذ ويتمتع بها الشاربون منها، مما يدل على أنها ليست كخمر الدنيا، تذهب بالعقول، وبالتالي فلا يدرك لها لذة، فإن في إثبات لذتها إثبات لطيبها، وكمال الشعور بطعمها اللذيذ. وأنهار أخرى من العسل، الذي خلقه الله تعالى صافياً من كل شيء يشوبه، أو يعكر على الشارب شربه، لأن الله تعالى خلقه كما أراد، فليس كعسل النحل، يحتاج إلى تصفية، بل خلقه سبحانه وتعالى صافياً.

بما يفيد أن نازلي الجنة في نعيم مقيم، لا يزول ولا يحول. فقد اتصفت بالنعيم الدائم، فانتفى منها كل ما هو ضد النعيم، من التعب والنصب والمرض والشقاء.

ومن دقائق البيان هو وُرُوُد الجنات بصيغة الجمع ﴿ فِى جَنَّٰتٍ ﴾ ليفيد تنوع النعيم، مع التعدد والكثرة، كما وردت بصيغة التنكير، ومثلها الأنهار ﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ لغرض التعظيم والتبجيل لها، وللمُقَامِ فيها ولأهلها. وذكر النهر مفرداً لبيان جنسه. ثم من كمال النعيم عظمة المنزلة، حيث أنزلهم سبحانه وتعالى عنده جَلَّ جلاله، فقال تبارك وتعالى ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ فإنهم في مجلس ومكان عظيم ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ أي: مجلس عظيم، اتصف بأنه صدق من الحق، لا كذب ولا لغو فيه ولا تأثيم ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ أي: عند ربكم الملك، الذي له ملك كل شيء، القادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء أبداً. فمنزلتكم أيها المتقون هي عند ربكم، فإنها منزلة لا تدانيها منزلة، فهو مقتدر على كل ما تشتهيه أنفسكم.

ومن جميل البيان ودقائقه، أن وصف مكانهم عنده جَلَّ جلاله ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ فدلالة ﴿ عِندَ ﴾ تفيد التكريم من حيث المكان والقرب والحفاوة. كما أن في إيراد صفة الملك له سبحانه وتعالى ﴿ مَلِيكٍ ﴾ ما يفيد المبالغة على وزن فَعِيل. بما يعني عظمة الملك الذي لا يُوصف من كماله وعظمته. وأورد سبحانه وتعالى صفة القدرة ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ بصيغة النكرة، لإظهار التعظيم والتفخيم والتبجيل له عَزَّ وجل، ولكمال قدرته وعظيم سلطانه سبحانه وتعالى. فإن من عظمة قدرته أنه لا يحيط بها الوصف. فهو سبحانه وتعالى مالك الملك، فلا يعجزه شيء، مما يبين ويفيد عظيم ما سيلقاه المتقون عند ربهم تبارك وتعالى. اللهم اجعلنا والمسلمين أجمعين من المتقين الذين يحظون بشرف ونعمة هذه المنزلة، بمنك وكرمك وفضلك ولطفك يا رب العالمين. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة القمر. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.